

الاسم: ابتسام

اللقب: بوطي

الرتبة: أستاذ محاضر -ب-

التخصص: الآداب العالمية والأدب المقارن.

البريد الإلكتروني: ibtissembouti84@gmail.com

عنوان المداخلة: صدى الثورة الجزائرية في الكتابة العالمية (دراسة في نماذج منتخبة)

ملخص المداخلة:

عُدَّت الثورة الجزائرية المعين الأول الذي اغترف منه الكثير من الكتّاب -محلّيا وعربيا- أعمالهم الأدبية فكانت بمثابة الدّافع الأول للكتابة عند بعضهم ومثّلت بؤرة الحكي عند البعض الآخر، حيث كانت الحدث العالمي الأهم إبان الحربين العالميتين، ثم تجلت الثورة بأصواتها وقضاياها ضمن الإبداع الإنساني أينما كان، كذلك لم يقتصر صدى الثورة النوفمبرية على الأدب فحسب بل تعدّاه إلى الأعمال الفنية الأخرى كالمرسح والسينما...

لقد احتوى الكتّاب الجزائريين الثورة بأقلامهم وإبداعهم تجسيدا للروح الوطنية والانتماء القومي، لكنها ما لبثت أن حظيت بمساحة كبيرة لدى الكتّاب في العالم، ومن ثمّ أصبح البحث في قضايا التحرر والثورة الجزائرية -خاصة- سمة بارزة في الكتابات العالمية وغدا نقد الخطاب الاستعماري ضرورة حتمية لتقويض الهيكلية التاريخية النمطية التي بناها الكتّاب الكولونياليين لفترات طويلة من الزمن الامبريالي.

الكلمات المفتاحية: ثورة، نوفمبر، الكتابة، العالمية، الجزائر.

ABSTRACT:

The Algerian Revolution was considered the first source from which many writers - locally and in the Arab world - drew their literary works. It served as the first motivation for writing for some and represented the focus of storytelling for others, as it was the most important global event during the two world wars. Then the revolution manifested itself with its voices and issues within human creativity wherever it was. Likewise, the resonance of the November Revolution was not limited to literature only, but extended to other artistic works such as theater and cinema

Algerian writers contained the revolution with their pens and creativity as an embodiment of the national spirit and national belonging, but it soon gained a large space among writers in the world, and then research into the issues of liberation and the

Algerian revolution - in particular - became a prominent feature in international writings, and criticism of colonial discourse became an inevitable necessity to undermine the structure. The stereotypical historicism constructed by colonial writers for long periods of imperial time.

Keywords: revolution, November, writing, internationalism, Algeria

تقديم:

"إما عظماء فوق الأرض أو عظام تحت الأرض" غسان كنفاني

إن الانطلاقة الأولى لثورة نوفمبر المجيدة أكدت حجم مقاومة وثبات الشعب الجزائري مقابل السياسات المنتهجة من طرف المحتل، وثقافته الامبريالية التي سعى لفترات ليست بالقصيرة إلى فرضها وترسيخها في المجتمع الجزائري/العربي، ومن ثمّ صور- في خطابه الكولونيالي- الجزائر قطعة من فرنسا، لكن الهيكل التاريخي والسياسي الذي رسمه الاستعمار سرعان ما بدأ بالانهيار أمام الفكر النضالي واستراتيجيات الدفاع التي أظهرتها المقاومة الجزائرية في مواجهة منظومات العلوم الإنسانية العنصرية التي استثنت فكر الآخر وحضارته، فسعت إلى تقزيمه ومن ثمّ تهميشه ونبده.

لقد كانت لشذرات ثورة نوفمبر أبعادا سياسية وتاريخية وثقافية واجتماعية تجلّت في الكتابات العربية والعالمية وقبلها الجزائرية فقد عملت الأخيرة على إيصال صوت الشعب المضطهد أولا والثورة المجيدة المعلنة ثانيا، فكان لقضية التحرير الجزائري صدى كبيرا في الخطاب العالمي وحظيت ثورة نوفمبر بمساحة واسعة ضمن الكتابات الأدبية والأعمال الفنية، من فرانس فانون وسينغور جنوبا، إلى جان جينيه شمالا، إلى الشعراء والأدباء العرب شرقا و إدوارد سعيد غربا، كلّها كانت أصواتا إنسانية تُناهض الفكر الاستعماري وتجاهه وتثور على تكريساته المنتهجة، كما ترمي ضمن كتاباتها إلى احتضان الثورة ومساندتها وتدعم الفكر التحرري للشعوب في دفاعها عن تاريخها وهويتها ومعتقداتها.

عطفا على ما سبق تروم هذه الدّراسة إلى إبراز الصدى الذي أحدثته ثورة نوفمبر في الكتابة العالمية، وحضور القضية الجزائرية ضمن الخطابات الأدبية الإنسانية، كما تكشف مدى العلاقة المتينة بين الأدب والمجتمع وما لهذه الصلات من تأثير وتفاعل وتلاقح منذ التاريخ الأول للشعوب.

إشكالية البحث:

-هل توجّه الكتاب غير الجزائريين إلى الكتابة في موضوعة الثورة؟

- كيف ناصر الكتّاب العالميين الثورة الجزائرية؟ وما هي أهم الأبعاد التي تناولتها هذه الكتابات؟

- كيف ساهمت الكتابات حول ثورة نوفمبر في تقويض الخطاب الغربي؟

أولاً: كتابات الآخر حول ثورة نوفمبر:

اندلعت الثورة الجزائرية فاحتضنتها الدول العربية ودعمتها سياسيا واقتصاديا بشكل سريّ أو معلن، ومما لا ريب فيه أن ثورتنا العظيمة احتلت حيزا واسعا من اهتمام الشعوب العربية قبل أن تتوسع لتشمل اهتمام الإنسان في مختلف أصقاع العالم، لم تكن الكتابة والأدب خاصة بمنأى عن الأحداث الجزائرية بما فيها من وقائع مأساوية وظروف مريرة يعيشها الفرد الجزائري تحت وطأة المحتل المستبد الذي سعى إلى طمس هوية الجزائري وتكميم الأفواه المناادية بالحرية، فقد أدرك الكتّاب أن كفاح القلم اتجاه لا بدّ منه لمؤازرة الثورة ودعمها ومن ثمّ إيصال صوتها وإعلاء رايها، تتدانى رؤية الكتّاب للثورة ومنهجها لذلك نجد أن الخطاب الأدبي جاء بصورة متكاملة ذات أبعاد تاريخية وثقافية ممجدا الأصول الجزائرية العربية الضاربة في عمق التاريخ، ومؤكدا على الثقافة الإسلامية والانتماء الديني والارتباط العقائدي الذي تفخر الجزائر بالانتساب إليه، وإذا تحدثنا عن الكتّاب الجزائريين الذين ناضلوا بالقلم ضد الطغيان فالمقام لا يتسع لذكر هؤلاء العمالقة العظام الذين أذكوا الثورة وأنتجوا إبداعات أدبية ثوريا ساهم بشكل كبير في دعمها وتعزيز أمل استرجاع الحرية منهم على سبيل المثال لا الحصر: مفدي زكرياء، محمد العيد آل خليفة، أحمد رضا حوحو، محمد ديب، مالك بن نبي وغيرهم كثير، أما بالنسبة لكتابات الآخر حول الثورة الجزائرية فقد تعددت لغاتها باختلاف لغات الدول التي كتبت فيها من فرنسية وانجليزية وألمانية حتى الكتابات التي كتبت باللغة الروسية واليابانية والصينية تضمنت الحرب الجزائرية والأفكار التي قادتها واستندت إليها فقد "أحصى رايmond كروموناكر حوالي 805 بحثا، كتب في عهد ديغول وحده تقريبا، في حين يذهب نيكولا ايبار المتخصص في دراسة تاريخ الناشرون والموزعون في فرنسا خلال حرب التحرير أنه في الفترة ما بين 1945 إلى 1962م تم نشر حوال ألف كتاب باللغة الفرنسية عن الثورة الجزائرية، طبعت في دور نشر فرنسية مثل "دار غالمار التي تعتبر من أهم الدور التي آمن بالثورة الجزائرية، كما صدرت عدة كتب عن دار شارلت والحكومة المركزية وفرانسوا مسبيرو هذه الأخيرة التي نشرت كتاب لفرانسوا مسبيرو بعنوان "المشاهد الإنسانية" وكتاب "الناشرون والموزعون في

فرنسا خلال حرب الجزائر" للكاتب الفرنسي نيكولا ايبار والذي يعتبر من أهم الكتب التي دافعت عن القضية الجزائرية¹

لقد تباينت هذه الكتابات أيديولوجيا فمنها ما أرخ لتاريخ فرنسا باعتبار أن الفترة الاستعمارية في الجزائر هي جزء من تاريخ فرنسا، ومن خلالها حافظ الكاتب على توجهه الأيديولوجي في عرض الأحداث والوقائع ومن ثم أسبابها ودوافعها، ومن الكتابات من ناهضت الاستعمار الفرنسي واحتلاله للأراضي الجزائرية وفرضه القوة العسكرية والسياسية على شعبيها، ولم تنحصر الكتابة حول ثورة نوفمبر مع زمن الحرب فقط بل تجاوزت الأحداث إلى ما بعد الثورة ف" الدراسات الحديثة تحصي أكثر من أربعة آلاف مؤلفا حول الثورة الجزائرية بكل لغات العالم، فيما حوال 2400 دراسة باللغة الفرنسية وحدها، تنوعت هذه الدراسات بين كتب ومذكرات شخصية ومقالات صحفية وروايات ومسرحيات وشعر..."²

فقضية الثورة الجزائرية التي تجلّت ضمن الكتابات سواء أكانت عربية أو غربية ما هي إلا -حسب رأينا- ثورة الإنسان على الظلم والطغيان، وسعي الكتاب إلى تغيير الصورة النمطية التي طالما رسمتها الخطابات الاستعمارية للفرد الجزائري فهو "في رأي المستعمر الطّمع، متخلف وخامل وهو على ما يقول أحدهم: لا يعرف إلا السيف، ولا ينحني إلا أمامه، ويدرك أننا أذكى منه، فلنظهر له أننا الأقوى ليطيعنا...إن العربي في الجزائر غاز، مهدم، متوحش يستحق احتقار كل متحضر"³

بعد الممارسات العنيفة التي لجأ إليها المُستعمر في حق الجزائريين العزل، حيث لم يترك سياسة إلا انتهجها ليحقق تفوقه ويثبت قوته، وليتمكن من تحقيق الفوز كان على المحتل التوجه إلى سياسة الإبادة الثقافية فقد كانت "ثقافة الجزائر من قبل إسلامية عربية، وكان لهذه الثقافة كيائها وعناصرها المستمدة من الدين والعلم والتقاليد القومية والاجتماعية، وكان لها مراكز ومؤسسات شعبية منها المدارس والزوايا وهي المراكز الدينية التي تعد الطلاب للالتحاق بالجامعات الإسلامية...وقد حاول الاستعمار طمس هذه الثقافة وتبديل شخصيتها، كما حاول غزو عقول الجزائريين بثقافته"⁴ إلا أن صمود الشعب وثباته أمام العدو جعله يتكبد خسائر فادحة، وما زاد في تماسك الشعب الجزائري وحماسه نحو الحرية المددُ الروحي الذي كان يأتي من مختلف شعوب العالم العربي والغربي، ونصرة الكتاب للقضية الجزائرية ضمن رسائل وخطابات وروايات وأشعارٍ

ثانيا: الثورة التحريرية ضمن الأعمال الأدبية:

أ-الثورة في الشعر:

لقد حركت المجازر البشعة التي كان يقوم بها الاحتلال الفرنسي في حق المواطنين الجزائريين المنظومات الإنسانية، ومشاعر العالم فتحركت أقلام الأحرار في المغرب العربي ومشرقه كما في باقي أصقاع العالم نصرة لثورة نوفمبر ودفاعا عن حرية الجزائر وتطهيراً لأرضها الطيبة من دنس العدو، وفي هذا الصدد نجد الشاعر المغربي "المدني الحمراوي" في قصيدته ملحمة الجزائر يستنكر جرائم فرنسا وعمليات القتل التي اقترفتها ضد الشعب الجزائري يقول:

فكم سفكت فوق "الجزائر" مهجة من العرب الأحرار لم تقترف وزرا

وكم رملت أنثى ويتم صبية وقتل آباء وأبناؤهم صبيرا

وذبح أطفال صغار ونسوة محجبة في الدور تلتزم السترا

وكم هتك الأوغاد عفة حرة تنادي قبيل العار: فلتقتلوا البكرا

فظائع لم تعرف لها الأرض اخوة فلا قيصر يدري بهن ولا كسرى"5

لم تتجلى الثورة الجزائرية في شعر المغربي المدني الحمراوي فحسب بل كتبت حول قصائد كثيرة من مغاربة أحرار عايشوا الأحداث الجزائرية وتعاطفوا مع شعبها الأبى فتغنوا بصموده وثباته وثورته في وجه الاستعمار ومن أمثال هؤلاء نذكر: محمد بن علي العلوي الفاسي في قصيدته تحية شاعر، وعبد اللطيف أحمد خالص.. وغيرهم كثير.

ومن تونس نجد الشاعر منور صمادح يصف الأبطال المجاهدين في الجزائر وكفاحهم العظيم، كما يقسم بالأطفال المعذبين يقول:

قسما بأطفال تحز رقابهم وأمومة أودت بها الأكار

قسما بكل بريئة قد لطخت وعواطف الشرفاء حين تثار

وبكل شيخ عذبه وقتلوا وبكل بيت باللظى ينهار"6

كذلك تظهر ت الثورة الجزائرية في قصائد كثيرة لشعراء التونسيين تضامنا وحرنا على ما تشهده الحرب، نذكر منهم: أحمد المختار الوزير، الهادي نعمان في قصيدته النغم الحائر، أحمد اللغماني في قصيدته لعنة الاستعمار

ومن موريتانيا يصف الشاعر محمد عبد الرحمان بن أحمد جنود الاحتلال التي جهزتها فرنسا للحرب على الجزائر، يقول:

"وطارت في الحديد وأنزلته وغاصت في البحار بلا دخان"7

لم ينأى الشعراء الليبيين عن الأحداث الدامية التي تعرّض لها الشعب الجزائري، فجند مجموعة من الشعراء الأحرار أقلامهم لوصف الجرائم التي اقترفتها فرنسا على أرض الجزائر ، بأسلوب تهكمي استهل الشاعر الليبي علي صدقي عبد القادر قصيدته "خسئت فرنسا" بإهداء لفرنسا جاء فيه: "إلى فرنسا التي كانت ولا تزال بائعة شهوة، ماجنة، وفأرا قدرا، وخنفساء حقيرة، والتي لن تكون دولة بحال من الأحوال، أهدي هذا القصيد" 8 يقول في المقطع

الثاني من قصيدته:

وتطعن زوجاتنا الصابرات	وتمشي طوابير جيش الأعادي
وتهشم رأس المريض مؤخرة البندقية	على ترب أرض بلادي
وتسرق حلّى الحرائر	تدنس حياته الطاهرة
خسئت فرنسا	تفتش كل البيوت
خسئت" 9	وتقتل أطفالنا النائمين

ومن الشعراء الفلسطينيين الذي كتبوا عن الجزائر نذكر منهم راشد حسين الذي كتب العديد من القصائد التي تتغنى بالجزائر وشعبها، لكنّه كثيرا ما يتخذ من الثورة الجزائرية موضوعة لأشعاره فيصِف الثوار وكفاحهم وقوة صبرهم ونضالهم المستمر، يقول:

فالثائرون على جلادهم دمهم بحر وأشلاؤهم في وسطه جزر

شعب تمطى فلا قيد يكبله ولا تغيبه في صدرها الحفر

وتركزت في الزنود السمر مشنقة فيها تأرجح رأس الغاصب القذر

وجمدت في فم الثوار أغنية فالبندقية عود واليد وتر" 10

ومن فلسطين كذلك نجد الشاعر الثائر المعروف محمود درويش، رغم اهتمامه الكبير بقضية فلسطين والقيود التي تكبل شعبه من طرف المحتلين، لكن الثورة الجزائرية طالما شغلت حيزا كبيرا ضمن قصائده يقول:

أصدقائي

أقربائي

إنّما أخباركم يا أقربائي

فرحة في قلب عمال بلادي

نشوة في عمر أطفال بلادي

وفي موضوع آخر من القصيدة يذكر الأوراس في شموخها وعزّها وكبرائها فيقول:

في بلاد... كل ما فيها كبير الكبرياء

شمس إفريقيا على أوراسها قرص إباء

وعلى زيتونها مشنقة للدخلاء" 11

كذلك نجد شاعر فلسطيني آخر يتغنى بثورة نوفمبر المجيدة ويُمجّدُ شعب الجزائر الثائر هو الشاعر حنا أبو حنا يقول:

ورأيت شعبي سيل نار دافق متوثب في موكب الأرياح

وإذا اللهب بريق عينيك ساطعا وعيون شعبي الثائر الطمّاح

فلأجل تحرير الجزائر ثورتي ولأجل رغدتي وثبتي وكفاحي 12

تغنى الشعراء العرب الذين بثورة نوفمبر وكتبوا عنها أشعارا امتزجت بالرّد على كل ما جاء من الفرنسيين بأن الجزائر فرنسية مع لهيب الثورة وأمل في انتصار الشعب الجزائري، فجاءت القصائد – حسب عبد الركيبي- تشبه الملاحم في قوتها وتصويرها للأحداث في الجزائر نذكر من تونس: مصطفى الحبيب بحري، والميداني بن صالح وسليمان العيسي، ومن اليمن ابراهيم الدامغ ومن السودان محمد الفيتوري وغيرهم كثير، فكلما حاول الاحتلال الفرنسي محو تاريخ الجزائر وتغييب هويتها وطمس وتخريب إرثها الثقافي، كان الجزائري يقف صامدا إزاء كل المحاولات البائسة في تغريبه عن لغته وتهجيريه عن وطنه وتشريدته ونبده، وما المحتل في بلادنا المقدسة عن هذه السياسات ببعيد، فشعر الثورة إذن أيّ كان كاتبه مثل خطابا موازيا لخطاب الثقافة الامبريالية الغربية، فجاء مقاوما لها وهادما لكل ما بنته وصوّرتة لشعوب العالم.

ب- الثورة في المسرح:

يُعدُّ المسرح من أهم وسائل التعبير التي اعتمدها الشعوب المهمّشة لإيصال صوتها وتحريك قضيتها لدى العالم، لذا لا يمكن أن نُنكر الدور الفاعل الذي لعبه الفن المسرحي في الجزائر وإسهامه الكبير في تحريك الرأي وإيقاظ الشعوب وصحوة الضمير العربي، بداية بالشعب الجزائري في إحياء تاريخه والعودة إلى ماضي الأجداد ودفاعهم عن

أرضهم عبر مسرحيات خلّدها الفن المسرحي إلى يومنا هذا، حيث اتخذت من الشخصيات الإسلامية والتاريخية أبطالاً نذكر (حنبل، الخنساء، طارق بن زياد،) ومما لا ريب فيه أن الدافع الأول لتبني الفن المسرحي في الجزائر من طرف الكتّاب كان إعادة ترميم الذات الجزائرية المتشظية حينذاك ومحاولة إعادة بناء الشخصية الجزائرية العظيمة التي حاول الاستعمار لفترات طويلة تخريبها وبناء شخصية مهتزة تنتظر منه الترويض والتحصير، وكاد ينال غايته لولا الحس الفكري الذي بعثه المسرح الجزائري المتماهي مع أصالة الشعب وتراثه ولغته وتاريخه، فقد حرّكت المسرحيات الجزائرية منذ شذراتها الأولى عواطف الشعب الجزائري وحنينه لتاريخه الكبير كما زادت حميته وأثارت غيرته اتجاه وطنه المغتصب، ولا يسعنا المقام لذكر ما قدّمه المسرح الجزائري للثورة التحريرية، والارتباط الوثيق بها ذكرا و رمزا وقضية ما يزال إلى يومنا هذا داخل الجزائر عبر مسرحيات معاصرة تستعيد معاناة الشعب آنذاك وتذكر قضيته وكفاحه وقوته، وما المسرحيات العربية المعاصرة عنها ببعيدة، وهذا ما قدّمه الكاتب حفناوي بعلي في كتابه المعنون بـ"الثورة الجزائرية في المسرح العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية" الكتاب صدر عام 2020.

إذن فالثورة النوفمبرية كانت ومازالت تُعدُّ أهمَّ مرجعٍ ثوري في التّاريخ الحديث والمعاصر، فقد استسقى الشعراء والمؤرخون والكتّاب منها أهم منجزاتهم متخذين من أحداثها مشاهدا ومن أبطالها رموزا، هذا ما نراه في مسرحية "مأساة جميلة أو مأساة جزائرية" للكاتب المصري عبد الرحمان الشرقاوي كتبت عام 1961 ونشرت ومثّلت عام

1962 مسرحية من الشعر الحر زمن المسرحية الربيع والصيف من سنة 1956

الاسم: جميلة بوحيرد	تاريخ ترويه بلادي
أجمل أغنية في المغرب	يحفظه بعدي أولادي
أطول نخلة	تاريخ امرأة من وطني
لمحتها واحات المغرب	جلدت مقصلة الجلّاد
أجمل طفلة	ثائرة من جبل الأطلس
أتعبت الشمس ولم تتعب	يذكرها الليلك والنجس
ما أصغر (جان دارك فرنسا)	في جانب (جان دارك) بلادي.. "13

يبدو أن رمزية المرأة/ ممثلة في شخصية البطلة جميلة بوحيرد، وفاعليتها في الحرب التحريرية لم يتوقف عند عبد الرحمان الشرقاوي فحسب، كذلك نجد جميلة بوحيرد في الكثير من المسرحيات العربية التي صورت صمودها

ومثلت مشاهد من حياتها ومواقفها وتحديها للمحتل نذكر منها: مسرحية "البطلة" للكاتب التونسي محمد فرج الشاذلي و مسرحية "جميلة": للكاتب الليبي عبد الله القوي، ومسرحية "جميلة" للأديب السوري عبد الوهاب حقي الذي مجّد الثورة التحريرية وأبطالها كما صور مشاهد من همجية الاستعمار كما أشاد بعناد جميلة بوحيرد وصبرها وقوتها التي دافعت بها عن أرضها لتحفاظ على هويتها وتاريخها، كما أن المسرحية كُتبت ومثلت إبان الثورة التحريرية المجيدة وقام بتمثيلها فرقة "أصداء المسرح" بسوريا، كذلك نجد مسرحية "جميلة" للشاعر المصري كامل الشناوي وهي عبارة عن أوبريت تحكي حجم المعاناة وبشاعة التعذيب الذي تعرضت له الأسطورة جميلة بوحيرد من طرف العدو للبوخ باسم قائد الفدائيين ومخططاتهم.

لم يكن صدى الثورة الجزائرية مقتصرًا على الكتابات المسرحية الجزائرية والعربية فحسب، بل تعدّى ذلك إلى النصوص المسرحية الغربية، وقبل هذا يجدر بنا الذكر أن عديدا من المسرحيات الجزائرية قد تجاوزت الحدود الوطنية لتُعرضَ في أكبر المسارح العالمية ومن ثمّ حرصت على إيصال صوت الشعب الجزائري والدفاع عن حقه المشروع.

أما عن المسرحيات الغربية التي اتخذت من الثورة الجزائرية موضوعة لها فهي كثيرة وكانت أهمها تلك التي كتبت باللّغة الفرنسية وكانت مساندة لثورة التحرير الوطني فقد "ألف الكاتب جان جينيه مسرحية الستارات عن الثورة الجزائرية، وأخرجها روجيه بلان وعرضها في صالة الأوديون، سنة 1966 ومنذ أول يوم لعرضها أحدثت هذه المسرحية ضجة سياسية عنيفة ليس لأن الكاتب جان جينيه راح فيها يمجد الثورة الجزائرية، ولكنه أكثر من ذلك راح يسخر من الجيش الفرنسي" 14 مسرحية ستارات عبارة عن مشاهد متسلسلة تعرض بداية حياة الجزائريين وما يعانونه تحت وطأة الاستعمار، وفي مرحلة أخرى "فإن الكاتب جان جينيه يخصصها لاندلاع الثورة التحريرية، ونرى أهل القرية يقبلون على بيت الشهيدة خديجة ويتلقون من وحي روحها الدعوة للانخراط في الثورة ودعمها ومساندتها، فيروي كل واحد منهم صراعه ضد المحتلين بطريقة رمزية، وفي مواقف درامية تبرز انتشار الثورة في ربوع الوطن وفي المرحلة الرابعة تصور المسرحية انتصار الثورة وطرده الاحتلال" 15 ما ميّز مسرحية ستارات أن الكاتب أبدى تأييده الكامل لثورة التحرير الوطني مستنكرا عبر مشاهد المسرحية الجرائم الفظيعة التي ألحقها الجيش الفرنسي بأهالي الأرض، بجعلهم خارجون عن القانون، لم يكتف جان جينيه بهذا فحسب بل هاجم الاحتلال بطابع من السخرية والتهكم على عناصر جيشه في مشهد من المسرحية يعرض جان جينيه مشهدا صادما "وهو ما جعل

بعض المشاهدين من أعضاء منظمة الجيش السري التي شاركت في حرب الجزائر، يقومون باحتلال المسرح ومنع متابعة المسرحية منادين بالموت لجان جينيه وعلى الرغم من تدخل وزير الثقافة الفرنسي أندريه مالرو لصالح المسرحية ودفاعا عن جينيه، إلا أن عرض المسرحية لم يستمر سوى ثلاثة أسابيع وقدمتها غالبية العواصم العالمية لأشهر عدة مع حذف بعض المشاهد"16

لطالما سعى المحتل الفرنسي إلى بسط نفوذه وتوسعه مثلما استند إلى قوة سلاحه، فاعتمد على بطشه وقسوته في مواجهة قوة شعب منبعها الحرية وسلاحها كرامة شعبها وإبائها، فتجلّت هذه القوة في أقلام الكتّاب الأحرار وكفاح الروح الإنسانية، للثورة في وجه العدوان وإيصال رسالة الشعوب المهمّشة المستضعفة، فكانت ثورة القلم كثورة البندقية وانحصر العدو في زاوية مغلقة بعد الصدى الواسع الذي أحدثته ثورة نوفمبر في الكتابات العربية والعالمية والترجمات التي شهدتها الأعمال الجزائرية، وبداية انهيار الجمهورية الرابعة التي لا تهزم أولا بتقويض الخطابات الكولونيالية، ومن ثمّ انهزام القوى العسكرية/الاستعمارية.

ثالثا: الثورة الجزائرية بأقلام عالمية:

ونقصد بالكتابات العالمية ما أُلّف من كتب ودراسات حول القضية الجزائرية، فاندلاع الثورة عام 1954م لم يُؤثر على الشعر والمسرح والرواية والقصة... فحسب، باعتبارهم أجناسا أدبية تستوعب الواقع وتنقله وتصفه، لا ريب في أن هذه الأنواع الأدبية أدّت دورا كبيرا وفاعلا إبان الثورة التحريرية المجيدة وهذا ما ذكرناه سابقا، لكن الكتابة في موضوعة الثورة والبحث في قضاياها وأبعادها شكلت بدورها خطابا موازيا ناهض الاستعمار وعزّز مشروع حرية الجزائر، وقد كانت الكتابات العربية كثيرة لا يمكن حصرها في هذه الدراسة ونذكر منها: كتاب ثورة الجزائر والاحتلال الفرنسي الذي نشر سنة 1957م للكاتب العراقي بدر درويش الرافعي، وكتاب "القضية الجزائرية بين الشعب الفرنسي والاستعمار الفرنسي" لمؤلفه إبراهيم كبه، وكتاب أحمد الشقيري المعنون بـ"دفاعا عن فلسطين والجزائر" الذي نشر عام 1962م وقد فصلت في هذه الكتابات الدكتورة هجرسي خضراء في مقالها المعنون بـ"كتابات الآخر حول الثورة الجزائرية(نماذج) ، والمؤلفات العربية في هذا الصدد كثيرة ومتنوعة –ما ذكر سابقا- فموضوعة الثورة الجزائرية مثّلت –وما تزال- المرجع الثوري للشعوب العربية والعالمية حيث استلهم الكتّاب منها أعمالهم باختلاف مجالاتهم النقدية والتاريخية والاجتماعية....

أ- الثورة عند الكتّاب الروس:

مما لا شك فيه أن العلاقة بين الجزائر وروسيا ليست وليدة الزمن المعاصر فحسب بل هي امتداد لعلاقات ثقافية وتبادلات اقتصادية، وتعارف شعبي متجذر في عمق تاريخ البلدين، إضافة إلى هذا لا يُمكن تغييب دراسات المستشرقين الروس الذين انتقلوا إليها وعاشوا فيها، فتعرّفوا على شعبها وموروثاتها وحضارتها ومن ثمّ نقلوا صورة الجزائر ضمن أعمالهم وكتاباتهم ما أثرى في تكوين علاقة متينة وتعاون فعلي في شتى مناحي الحياة، أما في مجال الكتابة فقد ساهم أدباء وكتّاب روسيا في التعريف بالجزائر وشعبها وكفاحها من خلال ترجمة العديد من الأعمال الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية وحتى بعض الأعمال المكتوبة باللغة العربية إلى اللغة الروسية ما ساهم في إيصال قضية الجزائر وقصة نضالها إلى روسيا والاتّحاد السوفييتي عامة يقول عبد العزيز بوباكير في كتابه "الأدب الجزائري في مرآة استشرافية" وهو مجموع مقالات مترجمة مما كتبه الباحثين الروس عن الأدب الجزائري في روسيا: "كانت الإبداعات الثقافية والفكرية الجزائرية معروفة نسبيا في روسيا وفي بعض الجمهوريات الأخرى للاتحاد السوفييتي سابقا، وكانت أعمال محمد ديب ومولود معمري وكتب ياسين في تناول القارئ الروسي بفضل حركة الترجمة، وحتى أسماء بعض الكتاب المعبرين باللغة العربية، أمثال الطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة وأبو القاسم سعد الله، كانت متداولة في الصحافة، كما ساهم كتاب ثقافة الجزائر المعاصرة 1961 في التّعريف بثقافة الجزائر وشخصياتها الأدبية والفكرية" 17

ويذكر عبد العزيز بوباكير أهم أسماء الباحثين الروس الذين اهتموا بدراسة الأدب الجزائري إبّان الثورة الجزائرية وهو ما ساعد في نشر القضية الجزائرية وإيصال صوت الكتّاب الجزائريين نذكر منهم : إيرينا نيكيفوروا وسفيطلانا براجوغينا وغالينا جوغاشفيلي

فمن أهم أعمال نيكيفوروا كتابها الموسوم بـ"الرواية الجزائرية المعاصر" نشر في موسكو سنة 1967م و"أدب النهضة الوطنية" موسكو 1968، أما غالينا جوغاشفيلي وهي حفيدة ستالين -كما ذكر عبد العزيز بوباكير- فقد اهتمت بدراسة جماليات الرواية الجزائرية ومشكلة الهوية الوطنية في أعمال الروائيين الجزائريين، كما عرضت تطور الرواية الجزائرية ومضامينها قبل الثورة التحريرية وإبانها، كذلك أولت الباحثة سفيطلانا براجوغينا "اهتماما خاصا لمراحل تشكل الثقافة الوطنية في أحشاء المجتمع الاستعماري وفي مرحلة الكفاح المناهض للاستعمار" 18 فاهتمام الكتّاب الروس بالأدب الجزائري في مرحلة الثورة هو اهتمامٌ مباشرٌ بقضية الحرب التحريرية، فالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية عدّ حينذاك نوعا من أنواع المقاومة الوطنية وساهم

بشكل فعلي في تطور القضية الجزائرية وتوسعها وانتشارها، وقد أثر -كما هو معروف- على الرأي العام الدولي، فـ "في تحليلها للرواية الجزائرية المعبرة باللغة الفرنسية أثناء الثورة وبعدها تلاحظ نيكيفوروف التغيير الجذري الذي حدث في إشكالية هذه الرواية وفي أدواتها الفنية، وتشير في الوقت نفسه إلى أن الأسماء البارزة في هذه الفترة، محمد ديب وكاتب ياسين ومالك حداد، عبّروا عن عصرهم وموقفهم منه بطرق مختلفة" 19

من جهة أخرى برزت مجموعة من الأصوات الروسية المناهضة للاستعمار الفرنسي والمساندة للشعب الجزائري وحقه المشروع في استرجاع أرضه وحرية نذكر منهم: روبرت لاند الذي ألف مجموعة من الكتب معنونة بـ "تصاعد الحركة المناهضة للاستعمار في الجزائر (1918-1931م) و (تاريخ الثورة الجزائرية 1954-1962م) كما كتب (تكوّن جبهة التحرير الوطني في الجزائر) و(كفاح الشعب الجزائري ضد الاستعمار الأوروبي 1830-1918م) كذلك كتب كوزمين حول الثورة الجزائرية في مؤلف بعنوان (الوثيقة البرامجية للثورة الجزائرية -الميثاق الوطني للجمهورية الديمقراطية الشعبية) وغيرهم من الكتاب أمثال مالا شينكو ألكسي، وفوليانسكي، و تراسكو نوباوقد فصل في هذا عبد العزيز بوباكير في كتابه الصادر عن دار ميم سنة 2018(الجزائر في الاستشراق الروسي) حيث ذكر الكتاب الروس ومؤلفاتهم حول الجزائر ثقافة وتاريخا ومجتمعاً، كما أوضح الصلة المتينة بين الشعبين والتي تجلّت في أعمال الكتاب ومذاهبهم ومساندتهم للجزائر ودفاعهم عنها منذ العهد القديم إلى يومنا هذا.

ب- عند إدوارد سعيد:

والحديث عن المقاومات الشعبية والحركات التحررية في العالم عامة والثورة الجزائرية بقيمها الإنسانية وقضاياها السياسية وأفكارها التحررية التي تجلت ضمن الخطاب العالمي يقودنا حتما إلى ذكر الكتابات المناهضة للاستعمار مع رائدها ادوارد سعيد، حيث لم تنأى كتاباته بمعزل عن الثورة العظيمة وقادتها، ذكر ادوارد سعيد ثورة نوفمبر في أهم أعماله: "الثقافة والامبريالية" و "السيوف والقلم" و "تعقيبات على الاستشراق" وقد عارض في كتاباته ما ذهب إليه ألبير كامو ضمن رواياته وكذلك مواقفه الغامضة من ثورة الجزائر، فموقف كامو "تجاه مصير الجزائر غير واضح...وطالب بالمساواة الاجتماعية متجنباً حوض موضوع المساواة السياسية، ولكنه تحفظ سنة 1945م تجاه موضوع استقلال الجمهورية الجزائرية الوطنية وقيامها" 20 فبالرغم من الارتباط المكاني والروحي -كما يذكره كامو- للجزائر إلا أنه "كان يتحدث بضمير نحن باسم الفرنسيين ويخاطب المواطنين الجزائريين بأنتم" 21

هذا ما توجه إليه ادوارد سعيد في كتابته عن الثورة الجزائرية والشعب الجزائري الذي عُيِّبَ قصداً في روايات أليز كامو (الطاعون، الغريب.....) رغم انتماءه الجزائري إلا أن النزعة المركزية كانت المحرك الأساسي في كتاباته حسب إدوارد سعيد، يقول في هذا الصدد: "تاريخ كامو هو تاريخ "مستعمر" أوروبي من أوروبّي الجزائر لقد ولد وترعرع في مكان قريب جداً من مدينة الجزائر على الشاطئ هي عنابة... ورواياته في رأيي هي تعبيرات حقيقية عن الورطة الكولونيالية" 22

إن حب كامو للجزائر الذي أعلنه في كل مكان لم يعطه الشجاعة الكافية لاتخاذ موقفاً صريحاً يُدين فيه الجرائم الإرهابية التي كانت أمه فرنسا تمارسها ضد الشعب الأعزل – وذكّرنا أمه فرنسا حسب ما جاء في تصريحات كامو الكثيرة بأنه مستعد للدفاع عن أمه قاصداً فرنسا- بل كان يعتبر الثورة الجزائرية "فتنة عصيان وتمرد، لا ثورة" 23 وأهم ما ذهب إليه ادوارد سعيد حول كتابات كامو هو كشف الأبعاد الأيديولوجية والأساليب الفنية التي اعتمدها كامو لترسيخ ثقافته الامبريالية داخل العقول وبوصف هذه الثقافة تقف على محورين أحدهما مركزي متفوق والآخر هامشي همجي، يقول ادوارد حول الممارسة العنصرية والثقافة الفرنسية التي ضمّتها كامو كتاباته: "كامو هو الكاتب الفرنسي الذي مثل العالمية...تكشف القراءة المتمعنة لأعماله أن أحداث معظم أعماله الأدبية الكبيرة...تجري في الجزائر لكنّها ليست من الجزائر...وإذا نظرت بتمعّن عن وجهة نظر الاستقلال الجزائري...فستجد أن كامو خلال أعماله كلّها بشكل عام، استخدم الخطاب الثقافي للمدرسة الفرنسية التي أدّت إلى العالمية والظرف الإنساني ومقاومة النازية والفاشية، وكل ما إلى ذلك كوسيلة لسد الطريق أمام ظهور جزائر مستقلة" 24

يقول ادوارد سعيد حول الذات الجزائرية صاحبة الأرض وبين الآخر الغريب بوصفهما نمطين يتبادلان الأخذ والرد: " في الكتاب ذاته قمت بقراءة الرواية الفرنسية على خلفية الاستعمار الفرنسي لشمال إفريقيا من جهة، وشعر المقاومة عند الأمير عبد القادر من جهة ثانية...أحاول القول إننا لا نستطيع فهم الامبريالية دون النظر إلى جهود هذين النمطين في علاقتهما ببعضهما البعض، ودون فهم انعدام التكافؤ النسبي في مقدار القوة بينهما (وهي حالة انعدام التكافؤ التي صححها حزب التحرير واستقلال الجزائر 1962)" 25

قدّمت الثورة الجزائرية أرضاً خصبة للدراسات بمختلف اتجاهاتها فقد برزت بشكل واضح في كتابات ادوارد سعيد الكبرى، فكان يعود لقضية المقاومة الجزائرية وثورة التحرير الوطني كلّما حاول تحليل الخطابات الكولونيالية المُستندة إلى القوى السياسية والتي طالما سعت إلى استنزاف خيارات الأراضي والتوسع وإثبات تفوقها، في المقابل تأثر

سعيد بالثورة المجيدة وهذا ما ذكره في عدة محطات من كتبه يقول: "جبهة التحرير الوطني الجزائرية التي هزمت الفرنسيين ونالت الاستقلال عام 1962م، رأت نفسها استمرارا للمقاومة التي بدأت في 1830م، على يد الأمير عبد القادر في الجزائر، لقد نظروا إلى أنفسهم كجزء من التاريخ نفسه" 26

إن الصّراع السياسي والاجتماعي الذي دار بين الجزائر وفرنسا خلال ما ينيف عن القرن، ما لبث أن تحوّل إلى صراع خطابي ثقافي، حاول فيه الاستعمار تخريب هوية الشعب الجزائري واستبدال انتماؤه وتاريخه ومعتقداته غير أنّ هذه المحاولات باءت بالفشل بعد التّصعيد الكتابي الذي شهده العالم إبان الثورة التحريرية مما ساهم في تشكل الوعي القومي بأهمية القضية ومشروعيتها، إضافة إلى صحوة الضمير الإنساني العالمي، فالدور الذي لعبته الكتابة العالمية حول ثورة نوفمبر ليس بالهين حيث اتخذت الكتابة كوسيلة لإيصال صوت الجزائر ومعاناتها، كما أظهرت للعالم الممارسات اللا إنسانية للمُحتل.

خاتمة:

في ختام موضوعنا نخلص إلى أن الثورة الجزائرية التي اندلعت في 01 نوفمبر 1954م كانت ثورة مشروعة وعادلة، فلولا هذا ما كنا نرى مثل هذه الأعمال وغيرها كثيرة، فما أخذنا إلا النزر القليل أمام ما كُتِبَ وأُلفَ حول ثورتنا المجيدة، شعرا ونثرا ونقدا وفنا...

إن ما مهّد الطريق لمثل هذه الكتابات، هو ما حملته الثورة التحريرية من قيم و أفكار، وما أظهره الشعب الجزائري من كفاح ونضال بمختلف الوسائل المتاحة لديه حينذاك، فاستعمل القلم مثل ما رفع البندقية، ووظف الكلمات والصور، كما نظم الصفوف ووحّد الأهداف، فكانت الإنسانية المعادل الموضوعي في القضية...

الهوامش:

- 1 - هجرسي خضراء، كتابات الآخر حول الثورة الجزائرية (نماذج)، مجلة الوثائقي للدراسات التاريخية، المجلد 1، العدد 2، جويلية 2022م
- 2 - نفسه
- 3 - نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرّفص والتحرير، دار العلم للملايين، ط1، بيروت 1981، ص 46، 47
- 4 - نفسه ص 53
- 5 - مصطفى بيطام، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، د، ط، الجزائر 1998م، ص 130
- 6 - نفسه ص 132
- 7 - نفسه ص 134
- 8 - نفسه ص 142
- 9 - نفسه 143
- 10 حسين أبو النجا، الثورة الجزائرية في قصائد الشاعر الفلسطيني راشد حسين، مجلة اللغة والأدب، العدد 18.
- 11 عبد الله الركيبي، الأوراس في الشعر العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د، ط، الجزائر 1982م، ص 21

- 12- شاكِر فريد حسن، الثورة الجزائرية في القصيدة الفلسطينية، طنجة/ الأدبية الجريدة الثقافية لكل العرب، 2010-07-08 عن موقع www.aladabia.net اطلع عليه يوم: 21 نوفمبر 2023م سا 11:58
- 13 عبد الرحمان الشرفاوي، مأساة جميلة أو مأساة جزائرية، دار المعارف، مصر 1962، ص 377-381
- 14- أحسن ثليلاني، صدى الثورة في المسرح العربي، مقال إلكتروني مجلة فواصل، 10-09-2022م، عن موقع fawassil.echaab.dz اطلع عليه يوم: 21 نوفمبر 2023م سا 12:47
- 15 نفسه
- 16 نفسه
- 17 عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصة للنشر، 2002، ص 03.
- 18- نفسه، ص 07
- 19- نفسه، ص 05
- 20 نور سلمان، مرجع سابق، ص 268-269
- 21 – نفسه ص 269
- 22 – ادوارد سعيد، السيف والقلم، حوارات مع دافيد بارساميان، تر، توفيق الأسد، دار كنعان للدراسات والنشر، ط1، دمشق 1998، ص 65
- 23 - نور سلمان، مرجع سابق، ص 272
- 24 – ادوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، تر، نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، ط1، بيروت، 2008، ص 135
- 25- ادوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق ، تر، صبيحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1996/1996 ص 152-153
- 26 – ادوارد سعيد، القلم والسيف، مرجع سابق، ص 65